

الجامعة المستنصرية - كلية الآداب - مادة الفكر العربي المعاصر - المحاضرة الثانية

م/جميل صدقي الزهاوي: المثقف بين الشعر والعلم والفلسفة

لم يكن الزهاوي شاعراً فحسب، بل كان مفكراً أيضاً، ولعل جانب التفكير الذي طغى على شعره جعل هذا الشعر مما لا يقبل عليه كثير من الناس، الى جانب العديد من العوامل التي كانت حرياً على الشاعر وشعره في العهد القريب الذي عاش فيه، كان الزهاوي ذائع الصيت في البلاد العربية بما نشر من قصائد ومقالات في صحفها، وكان الزهاوي يرى ويتأمل ويقراً ويحس بنظرة مستقبلية أنّ رسالة ما عليه أن يبلغها لمعاصريه، إذا لم يلاحقوا الزمن فاتهم الركب، ولا بد للإنسان أن يواجه مسؤولياته، وأن يضع قدره وأن يدرك مستقبله بوعي تام.

فيما يخص الشعر، فالهدف من شعره هو التغيير، فأوكل اليه مهمة الانقلاب من الفساد الى الإصلاح، ومن الاستبداد الى الحرية، ومن الظلمات الى النور، ودواعي ودوافع الشعر عنده تتبع من واقع الناس، طاقته الشعرية لم تكن محدودة، فكان ينظم الشعر على رسله، ولم يتعمده ويتصنع فيه، فكان كثيراً من شعره قريباً من أن يكون نثراً.

فمع عنايته بالعلم والحث على التعلم، دعا الزهاوي الى التجديد في الشعر وأكد على أنه شاعر

مجدد:

سئمت كل قديم
عرفته في حياتي
إن كان عندك شيء
من الجديد فهات

وله آراء جريئة في النقد والشعر تلغي أية قاعدة يتحتم على الشعراء أن يتبعوها: "ولا أرى للشعر قواعد، بل هو فوق القواعد، حر لا يتقيد بالسلاسل والاعلال، وهو أشبه بالأحياء في اتباعه سنة النشوء والارتقاء ... وما خلق الشاعر بأن يخرق التقاليد التي ورثها الأبناء من الآباء فيقول ما يشعر به هو، لا ما يشعر به آباؤه"، ويمنح الشاعر حرية مطلقة في اختيار أوزانه: "واجيز للشاعر أن ينظم على أية وزن شاء سواء كان من أوزان الخليل أو غيرها".

ودعا الى الغاء القافية: "القوافي قيود ثقيلة في أرجل الشعر العربي الذي يرسف فيها ولا يكاد يمشي حراً كما يجب أن يمشي، وكم شاعر خسر المعنى لانصرافه الى القافية ... وباختصار: هي آفة الشعر العربي وعقبة الشاعر العربي الكأداء ... وأرى القافية سوف تزول من الشعر كما زال السجع من النثر بعد نزاع شديد بين المحافظين والاحرار"، وذكر ذلك في قصيدته الشعر والنقد:

الشعر لا وزن ولا قافية تلتزم
بل هو معنى تائر قد قيدته الكلم

في طليعة ما حققه الزهاوي في الشعر أنه نقل موضوعاته الفردية الى الناس والمجتمع، لا سيما دعوته الى الإصلاح الاجتماعي في مجال المرأة والتعليم، فمن هذا المنطق يمكن أن يكتسب شعره شيئاً من الحداثة.

وأما الجانب العلمي، فالشعر عند الزهاوي ينبض بالفكر الحديث ومعارفه العلمية، فقد ترك الطبيعة الإنسانية ودوافعها النفسية، وإحساساتها العاطفية الى الطبيعة الكونية وما ينبث فيها من عجائب وغرائب، وأصبح الكون هو الذي يشغله بما فيه من أثير وجاذبية تشد وحداته في الأرض والسماء.

كان من دعاة العلم، يؤمن بأن العلم ثروة، فلا يتقدم الانسان ولا تتقدم الدولة الا بالعلم، فمن خلاله يتمكن المجتمع من أن يخطو خطوات سريعة لتحقيق مطالبه، وبين ضجره وتألمه من ضياع العلم، وأكد في أشعاره على أهمية العلم والاعتصام به.
فذكر في قصيدته الجهل والعلم:

الا أن ليل الجهل اسود دامس وأن نهار العلم أبيض شامس
ونحن بعصر لم يكن فيه مفلحاً بأعماله الا الذي هو دارس
وذكر في قصيدته تضجرت:

تضجرت من أرض بها العلم ضائع ومن زمن فيه الكرام قليل
وذكر في قصيدته ابنيها وتهدم:

يا قوم بالعلم لوذوا في شدائدكم فالعلم يعصم من بالعلم يعتصم
وأصلح في الشعر، ودعى الى العلم والتعلم، حيث ذكر في قصيدة له:
استتيروا بالعلم فالعلم نور إنما بالعلوم تنفى الشرور
ضجرت من هذا الشكون القبور انفضوا عنكم الخمول وثوروا

وفي أبيات من قصيدته حول العلم:

العلم ثروة امة ويسائر والجهل حرمان لها وبوار
العلم قد دك الجبال فهدها واضاء جنح الليل فهو نهار

بحث الزهاوي شعراً ونثراً كثيراً من الأمور العلمية وابتدع نظرات علمية خاصة به، وأعجب بنظرية دارون فنظم فيها قصيدة طويلة، واثرت دراسته للعلوم الطبيعية في شعره، فظهرت قصائده بمضامين غريبة منها الجاذبية والجسم والكهرباء ... الخ، وتحدث عن بعض الحقائق العلمية التي اشتهرت بين علماء الفلك والطبيعة، فكان يستوحى شعره من هذه الحقائق ويكاد الشعر يكون نظاماً لها، فكان يضيف عليها شيئاً قليلاً جداً من تخيلاته وأفكاره.

وتحدث في شعره أيضاً عن علم الحياة، وشغف بنظرية النشوء والارتقاء وأن الكائنات الحية تطورت من حيوانات دنيا الى الانسان متقلبة في مراحل، ففي أبيات قصيدته من نسل قرد:

ما نحن الا اقرد من نسل قرد هلك
فخر لنا ارتقاؤنا في سلم المدارك

وفيما يخص الجانب الفلسفي، افتتن الزهاوي بمقررات العلم الطبيعي، وشغف بالفلسفة المادية، فخلعته عن العقائد الدينية ولم يستطع التغلب على عقائده الوراثة فيعلن أنه أصبح مادياً، فبقى حائراً لا يدري بأي فريق يلتحق: بالفريق الذين يؤمنون بالغيب، ام بالفريق الذين يؤمنون بالواقع، وان الشك لا يعاب في الفلسفة، ويمكن أن نقول إنَّ الزهاوي من الشعراء الذين بحثوا عن الحقيقة عن طريق التفكير، فهو قد أجهد نفسه في طلبها ولم يفز بطائل.

وهذا ما ذهب اليه فيما بعد معروف الرصافي، ففي كتابه الشخصية المحمدية بحث عن الحقيقة، فهناك مغالطة في فهم هذه القضية، حيث يقول الرصافي: "فأنا أليهم ابرء الى الحقيقة من التاريخ، وأنا اليوم أكتب ما أكتب للحقيقة لا شريك لها عندي"، ويعبر الخصوم عن هؤلاء الشعراء، بأنهم ملحدون والحقيقة غير ذلك، فهم قد ينكرون الوحي والنبوة، ولكن لا ينكرون وجود الله الخالق. الزهاوي من المثقفين الذين دعوا الى الإصلاح والحرية والتنوير والتجديد في الشعر، ودعا الى الإصلاح الاجتماعي الذي يخص تعليم المرأة ورفع الحجاب عنها وتطوير العلم.